عصر الدولة العلوية
التاريخ الحضاري (ج2).

أ- الحياة الاجتماعية:

أما **السكان؛** فيرجع تقدير سكان المغرب إلى تقديرات تخمينية للأجانب من دبلوماسيين وجواسيس؛ فقد قدرهم سنة 1809م القبطان بوريل بحوالي عشرة ملايين وثمانمائة ألف، ويرى هوفر أن عددهم يتراوح بين 5 و 8 ملايين في منتصف القرن 19م. وقدر بوريل سكان فاس بـ 80 ألفا منها 5آلاف يهودي، ومكناس 40 ألفا. أما عناصر السكان فلم تتغير عن ذي قبل، وإن تزايد عدد الأوربيين في القرن 19 خاصة بعد حرب تطوان.

ولم تعرف المدن في عمومها تطورا ملحوظا في هذه الفترة، بل وعرف بعضها تقهقرا كمراكش التي منذ القرن 17م - بسبب الحروب والفتن والأوبئة - قد أقفرت أحياؤها وتهدمت مباني سكنية كثيرة، وقد كانت حتى عهد الحسن الوزان مدينة عظيمة راقية، وقد قدر اليهود بها في منتصف القرن 19م بحوالي ألفين.

وإلى سنة 1770م كانت تطوان مقرا للقناصل الأوربية ثم حولت إلى طنجة. وكانت تقوم بتطوان صناعات متعددة كصناعة الأسلحة، وضرب النقود التي شاركتها فيها الرباط وفاس ومراكش. ويظهر أن قصبة الأوداية ومدينة سلا قد تمتعتا بشيء من الاستقلال الذاتي كجمهورية أبي رقراق زمن السعديين (1782م).

وتصدر **اليهود** الميدان التجاري والدبلوماسي أيضا؛ وكان ميمران مستشارا لدى السلطان اسمعيل. وأنشأ لليهود عدد من الاحياء (الملاح) بعدد من المدن، فبنى سليمان لهم حيهم بالرباط سنة 1810م. واختلف الحال زمن السلطان اليزيد الذي أمر بنهب دار شيخ طائفتهم ومصادرته، ونهب يهود الرباط ومكناس والقصر والعرائش وتطوان.

أما **البوادي**؛ فكانت ذات حركة في النشاط الزراعي والرعوي، وقد تعربت منطقة الغرب كليا قبل العصر العلوي، وتفرغ سكانها للزراعة يعيش أكثرهم في خيام متواضعة أو نوالة بناء من قش وطين، أو قابوسة وهي خيمة مستديرة تصنع من القصب، وقد يجمع بينها فتوسطها مراح (صحن)، ووجدت بيوت مبنية بالحجر مسقوفة بالقش في بعض القرى. وكانت سهولها تضم خليطا من قبائل البربر وبينهم الشاوية والعرب من بني هلال كالخلط والطليق.

وعرف هذا العصر عمليات ترحيل للسكان منتظمة، وكان أولها نقل الشراقة إلى فاس ثم إلى ضواحيها فشتالة وصدينة، وهي قبائل عربية وبربرية كانت تحت الحكم التركي كأشجع وبني عامر ومديونة وهوارة وبني سنوس ومناطقهم حول تلمسان، لجأوا إلى المغرب فنقلهم الرشيد سنة 1670م. وكذا فعل أسمعيل بترحيل الشبانات وزرارة من مراكش إلى فاس ثم وجدة؛ وأحل مكانهم عرب الأودايا بفاس سنة 1679، وكانوا قد أفسدوا بحوز فاس، ثم جندهم إجباريا ونظمهم في الديوان بقيادة العياشي بن الزويعر الزراري.

أما **المرأة**، فلم يختلف حالها عما سبق، وقد برزت منهن سيدات صالحات و مثقفات متنفذات في السياسة، ومنهن: آمنة الغمارية، وفاطمة هدوز السوسية، وعائشة الأكمارية السوسية، كلهن من المثقفات، ومنهن الأميرة خناثة بنت بكار المغافرية (ت 1742م) زوجة المولى اسمعيل ووالدة السلطان عبد الله. وقد ساهمت نساء البلاط في حل الأزمات أو تعقيدها، وذلك ما فعلن بالسعي في تنحية السلطان الذهبي بمشاركة القضاة والعلماء، ونجحن. وكان تعدد الزوجات ظاهرة فاشية في الأوساط القروية، وهي بين الرحل أكثر.

أما **العادات والتقاليد**؛ فقد ذكر أحد الأسرى الإنجليز (أواخر 17م) شيئا من أخلاق المغاربة وتقاليدهم؛ فذكر إفراطهم في الغيرة على النساء، والتقاعس عن العمل إلى حد كرهه؛ وأنه لا وجود للسراق في طرق المغرب زمن إسمعيل. وذكر آخر أوصافا لهذا المجتمع ووصف يهود المغرب وما تمتعوا به من حرية في ممارسة شعائرهم وتقاليدهم وتكلمهم الإسبانية جميعا، وكبير احتيالهم الذي جعلهم يحتكرون التجارة.

وكان الاحتفال بالمولد النبوي يجري بشكل بهيج، تخصص ليلة المولد للأمداح النبوية بالمساجد، ويستمع السلطان لها، ويقوم بتوزيع عطايا مالية للجيش والموظفين والعلماء وغيرهم. واشتهر "التبوريد" وهو اطلاق الرصاص جماعيا ركوبا على الخيل في الحفلات الخاصة كالأعراس. وكانت مواسم الاحتفال بذكرى بعض الأولياء تعد تظاهرات شعبية كبرى يجتمع فيها أهل منطقته وأهل المدن المغربية وحتى من الخارج.

أما **اللباس؛** فاختلفت أشكاله واحواله بين المدن والبوادي وبين تقاليد القبائل، وإن غلب عليه الصوف في البوادي، وأحيانا القطن، ويغلب عليه البياض، وغلب على شباب المدن الزي التركي، وعلى المسنين والفقهاء الزي السعدي.

أما **الأوضاع الصحية؛** فقد ضرب الوباء المغرب في فترات متفاوتة في هذا العصر مع ما كلفه ح من تبعات؛ ومن أشهر الأوبئة: وباء سنة 1676-1679م وانطلق من تطوان، ووباء عام بالمغرب الإسلامي سنة 1752م جلبه حجاج البواخر من القسطنطينية، وغيرها كثير.

بـ. الحياة الاقتصادية:

كانت **الفلاحة** رغم بدائية الوسائل مصدر حياة أغلبية سكان البادية، وقد أصبحت سهول الشاوية ودكالة في هذا العصر ذات أهمية في الإنتاج الزراعي في عهد محمد الثالث. وستصير الشاوية في القرن 19م مركزا عظيما لتصدير الحبوب والمواشي. كما شهد هذا القرن توسعا هاما في زراعة القطن بدكالة. وكانت تتم عملية اقطاع أراضي الدولة الزراعية للقبائل أو مجموعة من الجيش، وكانت تمنح تنفيذات لأفراد أو عائلات أو زوايا بمقابل أو بدونه.

وقد منعت عوامل عدة نمو وتطور الثروات الزراعية والحيوانية منها:

- الهياكل التنظيمية للبلاد التي لا تهتم بالإشراف على تنظيم استغلال الأرض والانتفاع منها.
- ثم الأزمات السياسية والنزاعات المحلية والحروب الأهلية.
- وظروف القحط والمجاعة خلال القرنين 18 و19م، ومنها قحط ومجاعة 1610-1663م التي تضررت منها فاس كثيرا.

أما **الصناعة؛** فكان للمغرب ثروات معدنية ذات أهمية من حديد ورصاص وذهب وفضة وقصدير ونحاس، موزعة بين منطقة الريف ومناطق الجنوب كدرعة والسوس، تستغل جزئيا بوسائل بدائية. وكانت فاس أكبر مدينة للصناعات اليدوية، فكانت تنتج حوائك الصوف، والسبنيات تصنع من الحرير، والطرابيش، وثياب الكتان والبلاغي والسروج والأواني النحاسية والحلي والمصوغات من الذهب والفضة والأسلحة، وأشهرها الزرابي.

ودخلت تطوان ميدان الصناعات بداية من القرن 18م، فكانت تمون الجيش والمخزن بحاجاته من الخيام وثوب الكرية، وأنواعا متعددة من الثياب كالكمخة والجيم، وتنتج الآلات الحديدية كصفائح الخيل والمسامير، والذخائر والسلاح. وزودت مراكش بمصنع حديث لتزديج البارود زمن محمد بن عبد الرحمن، وأنشأ بها مصنعا لتكرير السكر لم يعمل قط. وأنشأ السلطان الحسن مصنعا للبنادق والمدافع الخفيفة بفاس.

أما **التجارة**؛ فكان أكبر خط تجاري داخلي هو الممتد من تطوان إلى فاس إلى تافيلالت. وكان لليهود دور كبير في تجارة تطوان والمغرب عموما؛ فكانت تطوان كميناء تصدر حوالي 15 إلى 20 في المائة من مجموع صادرات المغرب، وقد تمثل 50 بالمئة من وارداته. وتسيدت الصويرة بمينائها الصادرات خاصة نحو فرنسا وانجلترا، فكانت تمثل 50 بالمائة من صادرات الصوف في سنة 1830. كما كانت يصدر منها القمح إلى قادس وجبل طارق وجنوة، ثم أفل نجمها نهاية القرن 18 زمن السلطان الحسن.

وبقيت أكادير حتى بناء الصويرة ملتقا تجاريا مهما بين عرب الصحراء وأهل السودان. وحازت سلا والرباط قصب السبق في استقبال البضائع الأوربية زمن السلطان إسمعيل، وكانت التجارة الخارجية في الواقع بيد اليهود والأوربيين وحتى القناصل الذين كان بعضهم من اليهود.

ج- العمـــــــــــران:

تركزت اهم المنجزات العمرانية على بعض السلاطين، وكانت غاياتها تعميرية أو سياسية أو اقتصادية، كما في المدن المحدثة على أنقاض غيرها؛ أو استراتيجة أمنية كما في القلاع لمراقبة الأطلس؛ أو دينية كما في المساجد والمدارس والأضرحة؛ ومنها ما ارتبط بالحياة الخاصة كالقصور والبساتين الملكية.

ومال الفن المعماري في بناء المدن والأسوار والأبواب أكثر فأكثر على مادة الحجر، وبرز التأثير المورسكي والبرتغالي في هندسة عدد من المدن أو البوابات، وجل المدن بنيت بجوار أو مكان مدن سابقة، ومنها ما اكتفي ببعض التغييرات والإضافات فيها أو أعيد ترميمها.

1- **مكناس**: بنى السلطان اسمعيل مكناس مباشرة بعد ثورة أهل فاس (1673م)، واتخذها عاصمة، وغير معالمها، والجديدة تقع جنوب القديمة، فهدمت مجموعة من منازلها ومنشآتها وأقيمت مكانها ساحة الهديم والقصور المجاورة لها، وأقيمت أسوار جديدة وأنشئ ملاح لليهود. وكان سورها 25 كلم. وشاد بها مجموعة من المساجد كمسجد البردعيين والجامع الأخضر بالقصبة، هذه التي خصصت للجيش. ومن الملحقات الصهريج الكبير الذي يضم زوارق الرياضة والفرجة، ثم مجموعة الاصطبلات.

ويرى طيراس أن المدينة عبارة عن حصن قوي متأثر بطابع القصور الصحراوية المعتادة في تافيلالت، وهو يستمد من مؤثرات الفن الأندلسي المورسكي، وخالفه حركات في ذلك، ورأى أن فنها أندلسي قديم ومورسكي حديث. ونال المدينة التخريب في عهد خلف اسمعيل، فهدم السلطان عبد الله حي الرياض المشتمل على مباني كبار المسؤولين وعدد من القصور الملكية.

2- **الصويرة**: عرفت في القرن 11م بمرسى أمجدول نسبة لضريح سيدي مجدول بها، وحوره الأوربيون إلى موكادور. وفي سنة 1765 أنشأ السلطان محمد بن عبد الله مدينة حديثة بها؛ وكان الغرض من ذلك اقتصادي وتقني، الأول رغبة في الحد من حركة التهريب التي تتم عن طريق ميناء أكادير. والثاني لصلاحية الميناء لرسو السفن طيلة السنة. فوضع تصميمها وأشرف على بنائها المهندس الفرنسي "كورني" (Cornut). وسكنها عدد كبير من أهل السوس أمازيغا وعربا من معقل ويهودا وجبالة والعلوج وعناصر البخاري. وأنشأ بها عدد من المساجد وخمس مدارس، ولم تخلوا التحصينات والبوابات من الطابع الإبيري المورسكي.

وبنى محمد بن عبد الله فضالة أو المحمدية المسمات باسمه، بدأها سنة 1773م؛ كما بنى مدينة الدار البيضاء التي كانت تعرف قديما بأنفا.

3ـ **القصبات والتحصينات**: أنشأ السلطان اسمعيل ومحمد بن عبد الله مجموعة من القصبات والقلاع والأسوار والأبراج؛ فمن القصبات اثنان بفاس بنيتا سنة 1082هـ خصصتا لسكن الجند النظامي. ثم أنشأ ورمم بعدها اسمعيل عددا من القصبات والقلاع بلغت 76 موزعة بين بني يزناسن والأطلس وبعض المدن، وكان دور القصبات بالدرجة الأولى أمني. ومن أشهر الأبراج المنشأة برج مارتيل شيده اسمعيل حول تطوان.

4- **المنشآت الدينية**: لم تعرف تطورا يذكر، وبقيت متأثرة بالعهد المريني وبعض التأثير السعدي ذي الطابع العثماني.

فأما **المساجد**؛ فمنها مساجد مكناس زمن اسمعيل، كمسجد الزيتونة وغيره، والجامع التعليمي بفاس الذي أنشأه السلطان عبد الله الذي دفن فيه واتخذ ضريحا للشرفاء، وأنشأ السلطان سليمان عددا كبيرا من المساجد منها المسجد الكبير بتطوان (1223هـ).

وأما **الأضرحة والزوايا**؛ فقد اعتنى العلويون بترميم الكبيرة منها كضريح إدريس الأكبر بزرهون أعيد بناء قبته سنة 1719م؛ ومنها ضريح إدريس الأصغر بفاس وسعه السلطان عبد الرحمن، وشاد محمد الثالث مسجد شاكر على أنقاض رباط شاكر بين الصويرة ومراكش.

أما **المدارس**؛ فقد قامت أكثرها على عاتق الشعبيين بانشاءها أو باتخاذ الزوايا والمساجد مراكز للتعليم، ومما بناه السلاطين مدرسة الشراطين بفاس، بناها السلطان الرشيد، ومدرسة باب الجيسة بناها محمد بن عبد الله.

أما **القصور والبساتين**؛ فبنى اسمعيل عددا منها في مكناس، وبنى محمد بن عبد الله قصر دار دبيبغ بفاس سنة 1153هـ، وبمراكش قصر المنشية؛ وهو عبارة عن مجموعة من القصور والقباب.

وبنى عبد الرحمن بالرباط قصر أكدال وأحيا جنان أكدال بمراكش وهو عبارة عن مجموعة من البساتين منفصلة.

د- الحياة الدينـــــية:

حرست السلطة العليا على الإمساك بزمام القيادة الدينية، فكان التوجيه الديني يختلف وكل سلطان وميوله الدينية؛ فنجد سليمان يقيم مجالس الاستماع للحديث الشريف ومناقشته مع الأساتذة؛ وكان صحيح البخاري عندهم كتابا في منتهى التكريم؛ وعنوا بشؤون الحج من أوجه عدة، وكان محمد الثالث أكثر سلاطينهم إنفاقا على البقاع المقدسة وفقرائها وأشرافها.

وقد ظهرت حركة **استشراف** واسعة النطاق ابتداء من أواخر العصر المريني، وأخذت بعدا أكبر بانتشار الزوايا والطرق الصوفية، وتسابق الناس في ادعاء الشرف لما يحصلون من ورائه من امتيازات واعفاءات ضريبية، وساهمت الدولة في تقدير مقام الأشراف وتفريق الأموال عليهم وتعيين نقبائهم.

وأخذ تكريم الأضرحة أبعادا متناهية في الأوساط الشعبية، فاحترم الملوك أنفسهم الأضرحة الكبرى (ضريحي ادريس الأول والثاني)، حتى ممن كان متشددا في السلفية كمحمد بن عبد الله وسليمان؛ وقام اسمعيل بتجديد وتشييد قبة ضريح إدريس الثاني بمسجد الشرفاء بفاس، كما أعاد بناء ضريح إدريس الأول بزرهون. وكانت الأضرحة ملجأ للهاربين من الأمراء وحتى السلاطين والعمال والثوار دون أن تستطيع الدولة إخراجهم لحرمة المكان في العرف العام.

وتميز العصر بعدد من الظواهر التي يعود بعضها للعصر السعدي وبعضها لما قبله ومنها:

- تفشي بعض البدع وظهور أخرى.
- تفشي المعتقدات ذات الأصول الوثنية والأجنبية والغريبة عن الإسلام
- تفشي ظاهرة الجذب لدى الفقراء.
- عودة عدد من الزوايا إلى العمل السياسي وظهور أخرى جديدة أسهمت فيه.

فمن البدع شدخ الرؤوس بين أتباع الصوفي على بن حمدوش (1722م) وغيرها من البدع كثير، وقد حاول السلطان سليمان محاربتها بمرسومه الملقى كخطبة للجمعة بمساجد المغرب ينهى فيها عن عوائد البدع المنتشرة في زمنه. وظلت ظاهرة المكاشفة والكرامات والتنبؤ فاشية وإن كانت أقل منها مما في العصر السعدي. وقد استشرت ظاهرة الجذب واختلف أحوال أصحابها وفيهم من يهذي ويشتم ومن يتناول الخمر والحشيش ومن يخبر بالمغيبات ومن يلجأ للأبراج المهجورة، ومن أشهرهم أتباع "سيدي هدي" (ت 1804م). ومن الزوايا التي كان لها موقف سياسي الزاوية الريسونية وشيوخها في مساندة السلطان عبد الله على أخيه في نزاعهما فلقو الحظوة منه بعد، وقد كان الشريف محمد بن

الصادق الريسوني من شيوخ السلطان سليمان؛ وبخلافها كانت الزاوية الوزانية وشيوخها من المعارضين لبيعة السلطان عبد الله وموالية لأخيه، وورثت هذا الموقف المعارض بقيتها بل وزادت في مداهنة الاحتلال الفرنسي، وتورط شيخ الدرقاوية مولاي العربي في قيادة الثورة ضد السلطان سليمان مع الأمير إبراهيم بن اليزيد سنة 1819، إلى أن ألقي عليه القبض وسجن.

وفي الجملة كان المغرب الأقصى قد ضرب بحظ من الحضارة عبر عصوره وملوكم، وقد ساهم السلاطين في ذلك، خاصة منهم من طال حكمه، وكثر الأمان في زمنه، وهي في عمومها أقوى وأنشط مما كانت عليه في العصر السعدي.